٢ - بقية حديث في فرنسا

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

المقال الثاني

مما لم ينشر في سنة ١٩٤٠

مضافاً إليه بعض ما يتصل به حديثاً

يذكر الذين شهدوا معرض باريس العالمي الأخير سنة ١٩٣٧ شبه أقفاص أنهم رأوا في أقسام المستعمرات الفرنسية تضم أفراداً من الإنسان الإفريقي والإنسان الأسيوي اللذين قضى على أممهم سوء الطالع أن تقع في براثن الاستعمار الفرنسي. وقد عرضوا على أعين الناس أشباه عرايا كأنهم أنواع من « التورلا » أو « الشمبانزى » أو الوحوش ... وزيادة في الازراء بهم وكلوا حراستهم لجماعة من النساء العجائز.

هكذا سمعنا ممن شهدوا هذا المعرض، ولعلني رأيت صوراً لذلك في بعض المجلات المصرية أو في دور السينما فيما أظن.

هذه واحدة لفرنسا حامية حقوق الإنسان! التي أوقعت في روع البسطاء أنها اتخذت من ثالوث الحرية والإخاء والمساواة إلهاً سياسياً بشرت به وبشر معها أذنابها في بقاع الأرض.

لقد يغفر الله لفرنسا آثامها في نفسها وفساد حياتها وانحلال روابط الأخلاق فيها وما إلى ذلك من موبقات الحياة ومدمرات العمران ... أما أن يغفر لها امتهانها كرامات الإنسان على هذا النحو وعلى رءوس الأشهاد بعرضه هكذا، فذلك ما لا أظن الله مقدس الروح الإنساني ولو كان في جسم ممسوخ، وخالق الناس ألواناً وأجناساً شتى، قد تجاوز عنه لفرنسا!

ما أسعد العجزة والبله والممسوخين وناقصي الخلقة في الشرق الإسلامي وخاصة في مصر! إنهم يعاونون وتفاض عليهم ألوان الكرامة من القادرين الكاملين إلى درجة الاعتقاد بأنهم أولياء لله يتبرك بهم ويسعى إليهم ويعطف عليهم؛ لأن وراء النظرة إليهم إدراكاً من الناظرين أن الذي خلقنا كاملين هو خلقهم ناقصين، فهم غير مسئولين.

خلقتُ على ما فيّ غيرَ مخيَّر هواي ولو خُيِّرتُ كنت المهذبا

ولأن الناس يعتقدون أن الذي خلقهم هكذا ضعفاء وسط معترك الحياة لاشك سيتولى الدفاع عنهم والحماية لهم وامتهان من يمتهنهم.

ولكن الفرنسيين ينظرون إليهم كأنهم حيوانات بشرية في أفق أسفل. ونحن لا نريد أن ننظر إلى هؤلاء الناقصين نظرة الازدراء والإهدار، ولا نظرة التقديس والإكبار، فإن في كلتا النظرتين خروجاً على الصواب، ولكنا نريد أن نوازن بين حظ الروح الإنساني من التقديس في الشرق والهوان في فرنسا التي تزعم ويزعم لها أذنابها أنها حامية حقوق الإنسان ... ونريد أيضاً أن نقول للذين يدافعون عن روح فرنسا: إنهم لو قضى عليهم سوء الطالع فوقعوا تحت نير الاستعمار الفرنسي ما كان يستبعد أن تحشر فرنسا أقاربهم من الفلاحين المحرومين من العلم والتهذيب والمدنية في أقفاص لتتفكه بهم رواد معارضها تفريجاً عن قلوبهم — إن كان في هذا فرجة قلب — وزيادة في جلب وسائل إحاطتهم بالمعلومات ...

وإن في القرى المصرية من ناقصي الخلقة الملونين بغير اللون الأبيض أمثال من في بلاد شمال أفريقية والهند الصينية وجزر مدغشقر الذين عرضت منهم فرنسا نماذج.

***

يكاد يكون الإعجاب بفرنسا عند جمهور الدافعين عنها المحزونين على سقوطها يدور على محاور ثلاثة:

١ — مبادئ ثورتها التي زعموا أنها أول ثورة أعلنت حقوق الإنسان واتخذت من ثالوث الحرية والإخاء والمساواة إلهاً سياسياً.

٢ — دنياها الفكرية والأدبية التي ينمو فيها كل رأي بدون حرج ولو كان فيه حتف الدولة والدين ...

٣ — دنيا باريس « ذات المائة درجة والمائة دركة » بما فيها من حقائق وأباطيل، وضلال وهدى، ورشد وسفه.

***

أما الثورة الفرنسية فلم أر ثورة حبطت في أرضها وضاع أكثر مابذل فيها من الدماء هباء منثوراً مثل حبوطها وضياع جهودها ... ومع ذلك فقد ظفرت في الشرق الإسلامي وخاصة مصر بدعاية

فتنت الشباب فتنة العمى ، وأنستهم أن فى مواريثهم الفكرية والسياسية مبادئ أكمل وأكرم من مبادئها قد رآها التاريخ وسجلتها صحائفه قبل أن تثور فرنسا بألف ومائتى سنة . فلا ينبغى لهم أن يذكروها إلا بترتيبها التاريخى كصدى بعيد جداً للثورة الإسلامية الكبرى . ولكنا نحن العرب لسنا أمة فيها طفولة تحب الإعلان والطنطنة الجوفاء .

وللشباب معاذير من قصور البرامج الدراسية للتاريخ الإسلامى قصوراً مميتاً . ووزر ذلك على الذين مسخوه ولم يكلوا دراسته للمؤمنين به الواقفين على أسراره ، ومعاذير من الدعاية العريضة التى تنفق عليها فرنسا « العلمانية » والكاثوليكية وتحشد لها الذين أفئدتهم هواء وأعينهم عمياء وشهواتهم ثقيلة ، فانطلقوا يحرقون البخور ويفرشون الأزهار ويعطرون الأجواء لفرنسا والثقافة اللاتينية ، ويقيمون من فرنسا تمثالاً أمام أعين الشباب للحرية والقوة والعلم والجمال حتى جهل الشباب الإسلامى والعربى أنهم أعرق فى الحرية والمساواة وأعرف بهما ، ولكن أممهم لا تحسن الإعلان .

ولقد مهد هؤلاء الدعاة للثقافة الفرنسية فى نفوس المصريين ، وطبعوا النفس المصرية بالطابع الفرنسى فى المدرسة والبيت والذوق العام ... وكان من الأنسب لنا إذا كان لا بد من شيوع روح أجنبية فينا أن تشيع فينا الروح العالية التى فى أمريكا أو الروح بنوعيها : الإنكليزية والجرمانية ، فإنها روح قائمة على الخلق والعلم والعمل وفن الحياة بالجسم والروح . ولكننا على الرغم من وجود الحكم الإنجليزى السياسى بيننا نيفاً وستين سنة لم ننتفع بأساليب الحياة الإنجليزية ولم نتأثر بها كما تأثرنا بالروح الفرنسية ، ولو كنا تأثرنا بتلك التربية لكان لرجالنا من السياسة الإنجليزية موقف آخر عملى غير موقفهم الهستيرى الكلامى الحزبى الفردى الطليق من أكثر القيود الوطنية المقدسة . والذى يماثل موقف رجال فرنسا فى ديارها أشبه من الغراب بالغراب !

ولو كانت الثقافة الفرنسية مرضياً عنها عند الاجتماعيين والمفكرين الفرنسيين أنفسهم لكان لنا وجه من العذر فى اقتفائها ولكن هؤلاء الاجتماعيين كثيرو الانتقاد والسخط عليها ، داعو الإهابة بأممهم للأخذ بثقافة أمم الشمال لأنها ثقافة عملية منتجة معتدلة خاضعة لأصول الأخلاق ، وهى التى غيرت وجه الأرض وسيطرت على العالم .

* * *

قد يعذر الأوروبى إذا وجد فى الثورة الفرنسية بعض دواعى الإعجاب بجهاد قادتها ومؤرثى نارها فى سبيل تحرير الفرنسيين من استبداد الملوك وجمود الكنيسة وطغيان أمراء الإقطاع ، لأنه قد يجد فيها أمراً جديداً عظيماً غير الحياة الأوروبية فيما مضى . . ولكن لا عذر لعربى عرف أبسط مبادئ الإسلام فى العدالة والحرية والأخوة والمساواة ، وقرأ تاريخ الثورة الاسلامية الكبرى التى غيرت وجه التاريخ وأعلنت ووطدت حقوق الإنسان وجسمتها فى أشخاص أقاموا دولا مستقرة عمرت عمراً طويلا .

هذا إذا تغاضى الأوروبى عن الوحشية التى طبقت بها هذه الثورة فكشفت عن قسوة النفس الفرنسية وإسرافها فى سفك الدماء ، وإذا تغاضى عن تقلبات تلك الثورة وسيرها على غير هدى وعقمها عن إنتاج النتائج المستمرة التى أثيرت من أجلها كما سارت ثورات الأمم العاقلة المعتدلة وأنتجت وأطردت خطوات الأمة بعدها ولم ترتد على عقبيها كارتداد فرنسا بعد تلك الثورة الكبرى .

« فليس الفرنسيون شعب التطور التاريخى البطىء ولكن شعب التغييرات الثورية الفجائية . شعب قوى الاندفاع بلا « فرامل » . وخط تطوره كثير التعرج والالتواءات ؛ ففى آخر القرن الثامن عشر قلبت الأمة الفرنسية الحكومة الملكية باسم الديموقراطية والحرية ، ومع ذلك لم تمض عشر سنوات حتى عادت فرنسا إمبراطورية مطلقة ثم ارتدت فصارت ملكية محافظة ! ثم تحولت إلى ملكية برجوازية حرة ؛ ثم كانت ثورة أخرى ردت الجمهورية الثانية . ثم انقلاب حكومى أعاد للسلطة إمبراطورا. فلا توجد على هذا أمة كفرنسا فى اندفاعها وتحولها وانقلابها[1] » .

وفى العهد الأخير قبل الحرب الحالية وصلت فرنسا إلى عهد من الانحلال السياسى ، والاجتماعى جعلها تتهالك لأول صدمة مع عدوها التقليدى ، وتتخلى عن حلفائها وتنال من نفسها بأقلام قادتها وتدبير رجالها وقد صدق مستر هربست — وهو

(١) عن الداهية المجرى « كوتيس » ترجمة للأستاذ الصاوى صديق فرنسا . وقد أعدنا الاستشهاد بهذا الذكرى .

من أشهر رجال الصحافة الأمريكية — حين قال . فى صحفه عقب سقوط فرنسا بتاريخ ٢٤ — ٧ — ١٩٤٠ « لم تكن فرنسا ديموقراطية ولاحليفة كبيرة ولا أهلا للنهوض بأعباء الديمقراطية ، ولم تكن لها سياسة مقررة خاصة ، بل كانت متقلبة فى إخلاصها وحليفة لا يمكن الاعتماد عليها لبريطانيا التى تحمل المبدأ الديمقراطى الحقيق فى قرارة نفسها ، ولما أقبلت الأزمة قصرت فرنسا ثم سقطت » .

* * *

أما المحوران الثانى والثالث اللذان يقوم عليهما أيضاً الإعجاب بفرنسا ، فقد كفانى مهمة تناولهما بالنقد الأستاذ المفكر الجليل ساطع الحصرى بك الذى نشرت له الرسالة ذلك التحليل القيم « حول انهيار فرنسا » فى الأعداد الثلاثة الماضية. بل إن التصريحات الحديثة المتكررة لمفكرى فرنسا كمسيو هريو وغيره ، التى يعلنون فيها تألمهم من انحطاط معنويات الروح الفرنسية وانطلاقها وراء الشهوات والمنافع الشخصية وكراهتها للقيود المقدسة وارتدادها عن مبادىء ثورتها ، وعدم فهمها لوحى الساعة ومقتضيات الظروف العالمية الحاضرة ، مما تطالعنا به الصحف منذ سقوط فرنسا للآن لأكبر شاهد على أن فرنسا لا تصلح أن يكون لنا فيها أسوة ولثقافتها فينا تقليد وتأثير

وإنى لأوقن أن السر فى بلبلة أخلاقنا نحن المصريين واضطراب مزاجنا وذبذبتنا بين الروح الشرقية الكريمة التى كانت لنا ولا تزال باقية فى الريف ، وبين ذلك الانسلاخ الشائن والتحلل البالغ فى المدن إنما هو أثر من جوارنا للثقافة اللاتينية وخصوصا الفرنسية وتأثرنا بها

وعلى ذكر مسيو « هريو » أود أن أجلو جانباً من عداوته هو الآخر للعرب وسعيه لعدم إنصافهم ، وقد علمت بذلك الجانب حين كنت عضواً فى « الجمعية الإسلامية الأسبانية » التى تأسست فى مصر سنة ١٩٣٤ برياسة الأستاذ عبد الرحمن فهمى بك وكان من أعضائها ذلك الرجل العظيم المغفور له فؤاد باشا سليم الحجازى . ومسيو « يونسو » أحد الأسبان بمصر . وكانت أغراضها تنمية العلاقات العربية الأسبانية وتوطيد الصداقة بينها تمشياً مع تلك الحركة المشكورة التى بدأها الجنرال فرانكو لإنصاف مغاربة المنطقة التى تحت النفوذ الأسبانى من مراكش والتى كان من نتائجها الشروع فى تأسيس جامعة عربية فى مدريد تسمى « البيت العربى » لخدمة التراث العربى فى أسبانيا ويكون فيها كراسى أستاذية بأسماء ملوك العرب الذين يساهمون فى معاونتها . ودعت لذلك فعلا العلامة المرحوم الشيخ الخالدى الفلسطينى والعلامة المجاهد الأمير شكيب أرسلان للبحث والمشاورة ، ووعد الملك فيصل الأول ملك العراق الراحل رحمه الله بالإنفاق على كرسى فيها ، وابتدأت الحركة تسير خطوات نحو النجاح . فما كان من فرنسا إلا أن أوفدت مسيو « هريو » إلى حكومة أسبانيا ليحبط هذا المشروع الجليل والمسعى الكريم محذرا أسبانيا من عواقب سياسة التسامح مع المراكشيين ومبدياً مخاوف فرنسا من تسرب « عدوى » هذه الحركة إلى مراكش الفرنسية والجزائر وتونس... وكان لفرنسا ما أرادت ووقف المشروع .

ويزور مسيو « هريو » مصر لتوطيد حياة المعاهد الفرنسية بها قبل هذه الحرب فيبالغون فى الاحتفال به ولا تلق فى أذنه كلمة عتاب ... ويزورها أخيراً فى طريقه من موسكو إلى فرنسا أثناء الأعتداء الفرنسى الأخير على الشقيقة سوريا فيحتفل به كذلك ... ولا يقولون له ما كان يجب أن يقال فى مثل هذا الظرف . كأن منادح البيان قد ضاقت عن أن تتسع للترحيب والعتاب فى آن واحد !

عبد المنعم خلاف

إعلان

مجلس قليوب البلدى فى حاجة إلى ١٥٠ أردبا من الشعير و ٥٠ حمل تبن تسليم مخازن البلدية بقليوب وقد تحدد لفتح المظاريف ظهر يوم ١٨ يوليو سنة ١٩٤٥

٣٧٣٩